﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ [مريم: 19]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

سكونُ فؤادِها بعد فزَعها

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقة أنّ مريمَ عليها السلام فزِعت مِنَ المَلَك لمّا تمثّل لها بشرًا في خَلْوتها، ولجأت إلى اللّه تعالى مستعيذةً منه، جاءت هذه الآيةُ لبيان جوابِ جبريلَ عليه السلام لمّا رأى فزَعها وعَلِمَ خوفَها؛ فبادر بإجابتها بما يُزيل به خوفَها فقال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾، طالبًا بذلك تسكينَ روعِها، ونافيًا عنه ما قد تكون ظَنّته فيه مِن سوء[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِأَهَبَ﴾: أصله (وَهَب) ووَهَبْتُ لَهُ هِبةً، ومَوهِبَةً، ووَهْبًا، ووَهَبا إذا أَعْطَيْتُهُ[2]، والهِبةُ: العَطيَّة الخاليةُ عَنِ الأَعْواضِ والأَغْراضِ، وكلُّ ما وُهِبَ لَكَ مِنْ ولَدٍ وغَيْرِه: فهوَ مَوهوبٌ[3]، وهي: أن تجعل مُلْكَكَ لغيرك بغير عِوَضٍ، ويوصَفُ اللّهُ تعالى بالواهِبِ والوَهّابِ، بمعنى: أنّه يعطي كلًّا على استحقاقه، يقال: وهَبْتُهُ هِبَةً ومَوْهِبَةً ومَوْهِبًا، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ﴾ [الأنعام: 84]، ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تسكين الـرّوع بإظـهـار حُسْن المَقْصِد

بيّنت هذه الآيةُ أنّ المَلَك عليه السلام لمّا رأى منها الفَزَع وسمع منها التّعوّذَ قال لها مُزيلًا لما حصل عندها مِنَ الخوف على نفسها: ﴿إِنَّمَآ

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 16/ 42، وينظر: الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 397.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، (وهب).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (وهب).
(4) الرّاغب، المفردات: (وهب).

﴿أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ أي: أنا لستُ ممّن تظنّين، ولا يقع منّي ما تتوهّمين مِنَ الشّرّ، فإنّما أنا رسولُ ربّك بعثني إليك؛ لأهبَ لك غلامًا طاهرًا مِنَ الذّنوب[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ فصْلِ هذه الآية عمّا قبلَها:

الاستئناف لنفي أسباب الخوف

فُصلت هذه الآية: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ عمّا قبلَها؛ لأنّها جاءت في سياق المحاورة بين مريمَ عليها السلام وبين المَلَك؛ لذلك اكتفى بالرّبط بينهما لمجيئهما في الحوار، فلا حاجة إلى العطف لبيان الارتباط بينهما، الذي ظهر في استعاذتها منه وردِّه عليها.

دلالة القول في حديث المَلَك مع مريمَ عليها السلام:

الملائكةُ تكلّم البشر

دلّ التّعبيرُ بالقول في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ على أنّ الملائكة ناطقون، يُخاطِبون الآدميّين ويرونهم في صور الآدميّين، سواءٌ كان ذلك في مخاطبتهم للأنبياء أو لغير الأنبياء؛ فمُخاطَبةُ الأنبياءِ أمرُها ظاهرٌ ولا تحتاج إلى مثال، أمّا غيرُ الأنبياء فوقَعَ مع سارة امرأةِ إبراهيمَ عليه السلام، وكما هنا مع مريم عليها السلام.

ويكون المعنى: إنّي لستُ ممّن تخشَينَ أن يكون متّهمًا، مُؤكِّدًا لأجل استعاذتها ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ أي: الذي عُذتِ به، أي: فأنا لستُ متّهمًا، متّصفًا بما ذكرْت[2].

بلاغة القَصْر في الآية:

قَصْر نفسِه على الرّسالة مبالغة في ابتغاء تطمينها

آثَرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ عن نفي أسباب خوفِها بأسلوب القَصْر في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾؛ للدّلالة على تأكيد مضمون الخطاب، فقَصَرَ المَلَكُ نفسَه على الرّسالة

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 16/ 42، وجماعة من العلماء، التّفسير الميسر: 1/ 306.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 184.

لقطعِ جميعِ الظّنونِ والاحتمالات التي تكون في قلبها المُرتابِ الهَلِع، وهو قَصْرُ موصوفٍ على صفةٍ، إذ قَصَر نفسَه على صفة الرّسالة قَصْرًا إضافيًّا؛ لأنّه جاء ردًّا على قولها: ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ المُقتضي اعتقادَها أنّه بشر[1].

سِرُّ التّعبيرِ بـ ﴿رَسُولُ﴾ دون غيره:

آثَرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ بلفظ الرّسول دون غيرِه في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾؛ وذلك لأنّ الرّسول يقتضي أنّه مُحَمّل برسالة، والرّسالة هنا وهْبُها ابنًا يكون مِنَ المُرسلين، فكان جبريل رسولًا بهذه الحَيثيّة، والمَجيء بصفة كونه رسولًا، المُشْعِرُ بالرّسالة فيه تشويقٌ لها، وهذا يناسِبُ حالةَ الهَلَعِ والخَوفِ التي ألمّت بها، فعَجّل لها ما يُسَكّن قلبَها ويُهَدّئُ روعَها؛ فكأنه يقول لها: لستُ ممّن يُتَوقَّعُ منه ما توهّمتِ مِنَ الشّر.

الدّلالة على حمله رسالة الهِبة لها

دلالة إضافة ﴿رَسُولُ﴾ إلى الرّبوبيّة:

أضاف النّظمُ الجليل لفظَ ﴿رَسُولُ﴾ إلى الرّبوبيّة في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ زيادةً في اللّطف بها، وإيرادِ ما يُسكّن فؤادَها، تذكيرًا بلفظ الرّبّ المُحسنِ إليها، أي: الذي تعهّدَكِ ورعاكِ بما تعلمين ممّا سبق ووقع في حياتك، ولأنّ السّورة مُصَدّرة بالرَّحمةِ، التي مِن مقاصدها تعدادُ النّعم على عباد الله الصّالحين[2]، وفيه دلالةٌ على تشريفها وتثبيتها، وللإشعار بعِلّة الهِبة؛ لأنّ هِبَة الغلام لها مِن عطاءات الرّبوبيّة.

الرّسولُ مِن جناب المُحسنِ الكريم لا يأتي إلّا بخير

دلالة كاف الخطاب في: ﴿رَبِّكِ﴾:

أضاف النّظمُ البليغ لفظَ الرّبِّ إلى ضمير المخاطبة في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾؛ تسليةً لها

تسليةُ مريمَ عليها السلام وتثبيتُها بتعجيل تطمينها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 81.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 184.

وتعجيلًا بتطمينها، أي: إنّما أنا رسولُ ربّك الذي استعذتِ به، فأنا لستُ ممّن يُتَوقّع منه السّوءُ، وفي ذلك تشريفٌ لها، كما أنّ فيه إشارةً إلى عِلّة الهبة، وذلك أنّ هبة الغلامِ لها عِلّةٌ لتربيتها ورعايتها[1].

دلالةُ اللّام في: ﴿لِأَهَبَ﴾:

عِـلّـةُ الإرسـال وغايتُه

أدخل النّظمُ الجليل لامَ التّعليل على الفعل في قوله تعالى: ﴿أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ لبيان عِلّة الإرسال، أي: إنّما أرسلني اللّهُ تعالى إليكِ لأكونَ سببًا في هبته غلامًا لك[2]، والتّعجيلُ ببيان عِلّة الرّسالة زيادةٌ في تبليغها ما يطمئنّ قلبُها به، فلم يكتف بذكر مطلقِ الرّسالة، بل أتبعَهُ بعِلّة الرّسالة والغاية منها.

بلاغة المَجاز في إسناد الهبة إلى المَلَك ﴿لِأَهَبَ﴾:

الإعـلام بالهبة يُجيز للرّسول نـسـبـةَ ذلـك لنفسه

أسند بليغُ النّظم فعلَ الهبة إلى جبريلَ عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ على طريقة المجاز العقليّ، لأنّ الإعلامَ بها كان مِن قِبَلِه، فأضاف الفعل إلى نفسه[3]، أو لأنّه جرى على يده، وذلك لأنّه هو مَن نفخ في جيبها بأمر الله تعالى[4]، فالواهبُ إنّما هو الله تعالى، وإنما كان جبريل موصلًا تلك الهبة.

سِرُّ التّعبيرِ بالهبة:

الهِبَةُ عطاءٌ بلا عوض

آثَرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ بلفظ الهبة في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾؛ لأنّها العَطيَّةُ الخاليةُ عَنِ الأَعْواضِ والأَغْراضِ، وكلُّ ما وُهِبَ لَكَ، مِنْ ولَدٍ وغَيْرِهِ: فهوَ مَوهوبٌ[5]، فالتّعبيرُ به يدُلّ على خُلوّ الهبةِ بهذا الغلامِ مِنَ العِوض، لما فيه من إشارةٍ إلى أنّها تستحِقّ هذه الهبةَ، لاستعدادها وما فيها من أسباب الاستحقاق،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 260.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 260.
(3) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 4/ 9.
(4) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 16/ 42.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (وهب).

لأنّ معنى الوهّاب هو أن يعطيَ كلًّا على استحقاقه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾[1].

ويُؤكّد هذا المعنى أنّ القرآن الكريم في امتنانه بالولد يأتي دائمًا بذِكر الهبةِ دونَ غيرِها؛ للدّلالة على أنّ هذا العطاء بلا سببٍ مِنَ البَشَر، قال تعالى في حَقّ إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الصافات: 100]، وفي حَقّ زكريا: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾﴾ [مريم: 5]، وفي حَقّ البشر جميعًا: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾﴾ [الشورى: 49].

دلالةُ تعدُّدِ القراءات في: ﴿لِأَهَبَ﴾:

تعدَّدَتِ القراءات في قوله تعالى: ﴿لِأَهَبَ﴾ بين الهمزة والياء؛ فقرأ ورش وأبو عمرو ويعقوب وقالون بخُلف عنه بالياء: ﴿لِيَهَبَ﴾ وقرأ الباقون بالهمز[2]، فمن قرأ بالياء يكون المعنى: (ليَهَبَ لكِ الرّبُّ غلامًا)؛ لأنّ الواهب في الحقيقة هو الله، فيكون في الجملة ضميرٌ يعود إلى الرّبّ في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾، وعلى وجه إسناد الفعل إلى المتكلِّم: ﴿لِأَهَبَ﴾ يكون الإسنادُ مجازيًّا، ودورُ جبريلَ دورُ البلاغ، أو لكونه سببًا في هبته للنّفخ في دِرْعِها[3].

الـــواهـــب في الـحـقـيـقـة هـو الـلـه، والإسـنـاد إلى المَلَك مجازيٌّ

دلالةُ تقديمِ الجارّ والمَجرور ﴿لَكِ﴾:

قدّم النّظمُ الجليل شبهَ الجملة مِنَ الجارّ ﴿لَكِ﴾ على المفعول به ﴿غُلَٰمًا﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾؛ لما في التّقديم مِنَ التّشويق إلى المفعول، ليكونَ أوقعَ في النّفس[4]، كما أنّ فيه تعجيلًا للمَسَرّة، وذلك بتقديم ذِكْر المقصود بالهبة؛ لأنّ العبارة جاءت في سياق تسكين رَوْعِها وتطمينها.

التّعجيلُ بذِكْر المقصود بالهبة

(1) الرّاغب، المفردات: (وهب).
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 317.
(3) ابن أبي مريم، الموضح في وجوه القراءات: 5/ 815، والقاضي، البدور الزّاهرة: 1/ 198.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 184.

سرُّ التّعبير بالغلام:

مِن تمام البشارة تعجيل الإخبار ببلوغِه واكتمالِه

آثَرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ بلفظ الغلام دون الولد في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾؛ تفخيمًا لشأن البشارة به، وبيانًا للخير الذي فيها، وذلك ببيان كونه "ولدًا ذَكَرًا في غاية القوّة والرّجوليّة"[1].

سرُّ الوصفِ بقوله: ﴿زَكِيًّا﴾:

مِن تمام التّبشير بالغلام أن يكون الغلامُ مُتميّزًا

وصف النّظمُ الجليل الغلامَ بأنّه ﴿زَكِيًّا﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾؛ تمييزًا للغلام وثناءً عليه؛ إذ مُجَرّد البُشرى بالغلام لن تكون بشرًى كاملةً، ولمّا كانتِ البُشرى مِنَ الله تعالى على لسان جبريل فهي في الغاية العليا مِنَ الفخامة والعَظَمة، فلا بُدّ أن تكون البُشْرَى بغلامٍ تَقَرُّ به العين، فكان الوصفُ بأنّه زكيٌّ وصفًا على ما يقتضيه الواقع، وفيه إشارةٌ إلى أنّه بلغَ أوانَ الطُّهرِ مِنَ الذّنوب؛ لأنّ الصّبيَّ لا يوصَف به إلّا اعتبارًا بما يَؤول إليه، وفيه بشارةٌ إلى بلوغه إلى سِنٍّ يوْصَف الشّخص فيه بالزّكاة.

المُتشابه اللّفظيّ:

تشابهت هذه الآية: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾، مع قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [آل عمران: 45].

والنّاظر في الآيتين يجد أنّ موضع سورة آل عمران جاء بذكر الملائكة جمعًا في قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [آل عمران: 45]، وأمّا موضعُ سورةِ مريمَ فجاء بذِكْر المَلَكِ مُفْرَدًا في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ وقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾، ولا تناقض في ذلك؛

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 184 - 185.

فالمرادُ جبريلُ في الموضعَين، ويكون المُراد بالجمع التّعظيمُ، باعتبار جبريلَ رئيسَ الملائكةِ، وإذا كان القائلُ هو الرّئيسُ فيجوز الإخبارُ عنه بالجمع؛ لوجود جمعٍ مِنَ الملائكة في صُحبته؛ ولأنّ جبريلَ عليه السلام لا ينزل لأمرٍ إلّا ومعه جماعةٌ مِنَ الملائكة.

وممّا يُذْكَر في سِرّ ذلك أيضًا: أنّ سورة مريمَ متقدّمةٌ في النّزول على سورة آل عمران، والأمر فيها مبنيٌّ على التّفصيل والإيضاح، بدليل اختصاصها بمشاهِد لم تأتِ في سورةٍ أخرى، فكان التّعيين بأن الذي كلّمَها هو جبريلُ عليه السلام؛ ليتناسَبَ مع المُهِمّة التي كُلّفَ بها، وهو النّفخُ لتكوين ميلاد عيسى في رحم أُمّه؛ أمّا سورةُ آل عمران فالأمر فيها مبنيٌّ على الاصطفاء والبشارة، وهذا يناسبه التّعبيرُ بجَمع المَلائكة.

وممّا يُذْكر في التّشابه بينَ الآيتين: التّعبير بالأُلوهيّة في سورة آل عمران، والرّبوبيّة في موضع سورة مريم، والمناسبة في كلٍّ منهما ظاهرة؛ لأنّ موضع سورةِ آل عمران جاء في إثبات الوحدانيّة لله ربّ العالمين، وتنزيهه عنِ الشّريك والولد؛ لذلك كان اسمُ الجلالةِ هو المناسبَ في هذا السّياق؛ لأنّ وفد نصارى نجران الذين جاؤوا رسولَ الله ﷺ ينسبون لله الولد تعالى الله عمّا يقولون علوًّا كبيرًا؛ بخلاف موضعِ سورة مريم فهي مكيّة؛ فأَمرُ ادّعاءِ البُنوّة لله لم يكن موجودًا في هذا السّياق.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والثلاثون،
سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 31 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-73-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 31 : المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-73-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9736546 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»